

السيرة ذاتي والتخيلي في السيرة الروائية "أصبحت أنت" لأحلام مستغانمي.

Title of the article: The imaginary Autobiography in the Novel Biography "I

Became You" by Ahlam Mosteghanemi

² فادية بوفروة / ¹ كريمة بورويس

² fadia boufroua / ¹ karima bourouis

مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة.

جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل، 18000 جيجل (الجزائر)

University of Mohamed Seddik Ben Yahia Jijel, 18000 Jijel, Algeria

fadia.boufroua@univ-jijel.dz / karima.bourouis@univ-jijel.dz

تاريخ النشر: 2024/09/02

تاريخ القبول: 2024/05/29

تاريخ الإرسال: 2024/03/21

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى إثارة إشكالية كتابة الذات وتمثلاتها في السيرة الروائية لـ "أحلام مستغانمي" بحثا عن العلاقة المبرمة بين الكاتبة وقارئها، واستجلاء لمظاهر المعالقة الأجاسية بين السيرة الذاتية والرواية، انطلاقا من تقنيات السرد وعناصره البنيوية المعروفة التي قعد لها "جيرار جينيت" وغيره من الدارسين، وعليه سنركز على المناصات / العتبات؛ لأنها تبرز توجهها خاصا نحو كتابة مختلفة في هذا النص تقف خلفها كاتبة قادرة على ربط أواصر العلاقة بين تجربتها الشخصية وتجربتها الإبداعية، في محاولة منها إلى توجيه النص نحو سرد الذات بطريقة مبتكرة مخالفة لما هو معهود، ومن ثم فإن هذه العتبات تشكل مدخلا فعالا لممارسة فعل التجنيس وتبيين الحدود بين الجنسين الأدبيين المتداخلين في هذا النص، لذلك اعتمدنا آليات إجرائية تتراوح في انتمائها إلى مناهج نصية مختلفة: البنيوية، والشعرية، والسياسية.

الكلمات المفتاحية: سيرة ذاتية، كتابة الذات، سيرة روائية، أحلام مستغانمي، أصبحت أنت.

Abstract :

This study aims at raising the self writing problem and its representations in the novelist biography of Ahlam Mosteghanemi, to find the relationship between the writer and the reader, and to clarify the aspects of the gender relationship between autobiography and novel, based on the narrative techniques and its well-known structural elements that Girardinet and other scholars have

* فادية بوفروة: fadia.boufroua@univ-jijel.dz

studied. Accordingly, we focused on platforms/thresholds, because they highlight a special trend towards different writing ,behind on a writer who is able to connect the bonds of the relationship between personal experience and creative experience, attempting to direct the text towards narrating the self in an innovative way that is contrary to what is usual. Therefore, these thresholds constitute an effective entry point for practicing the naturalization act and clarifying the boundaries between the literary genres intersecting in this text. Therefore, we adopted procedural mechanisms that range in their affiliation to different textual approaches: structural, poetic, and semiotic.

Keywords: Autobiography, Self-writing, Novelist's Biography, Ahlam Mosteghanemi, I became you.



مقدمة:

تنوعت التشكلات البنائية للنصوص الأدبية وتعددت ألوانها، واختلفت فيما بينها إلى حد التمايز، حتى تنوعت ضروب الأدب وفنونه، ونالت من الأهمية الشيء الكثير كتابة وقراءة إبداعا ونقدا، إنتاجا واستهلاكاً ومن ثم، فإن هذه الآثار الفنية تأخذ لها قوالب شكلية مختلفة؛ ذلك أن المؤلف أثناء الممارسة النصية مرتبط بعملية إنتاج الكلام، وعملية الاشتغال على اللغة بوصفها مادة خاما، يعمل على تشكيلها وفق أنماط وأجناس أدبية، تخضع إلى رؤيته الإبداعية وقدرته على كسر الحدود وتحطيم القواعد؛ إذ أصبح الجنس الأدبي يتشكل انطلاقاً من علاقات التفاعل الأجناسية في نطاق تعلق النصوص وتأثير بعضها في البعض الآخر، ومنه عُدَّ سؤال الجنس الأدبي وإشكالاته سؤالاً قديماً مستحدثاً لحضوره المتجدد على امتداد النظرية الأدبية، ومن ثم فإن هذا الانفتاح الدائم يدل على انصهار الحدود الصارمة بين الأجناس الأدبية، ومن ذلك التداخل الأجناسي الحاصل بين جنس السيرة الذاتية وجنس الرواية نظراً لتشاكلهما وتشابكهما في الأساليب الفنية والطرائق السردية والمقصد المشترك، فضلاً عن إبرازهما لخاصية "كتابة الذات" التي تعتبر أداة جس لهذا التفاعل الحيوي والفعال بينهما.

استناداً إلى ما تقدم، وقبل الوقوف عند التواشع الحاصل بين المرجعي السيرة ذاتي والتخييل الروائي في السيرة الروائية "أصبحت أنت" لـ "أحلام مستغاني"، نطرح بعضاً من الأسئلة الإشكالية التي تتبادر إلى الذهن بعد الاطلاع عليها وهي أسئلة ذات طابع أجناسي بالدرجة الأولى:

- ما هو مفهوم السيرة الذاتية؟ وهل السيرة الروائية جنس أدبي قائم الذات؟ أم هي شكل من أشكال السيرة الذاتية؟ أم هي نوع فرعي انبثق عن جنس الرواية؟.
- كيف يتجلى التعيين الأجناسي "سيرة روائية" في المدونة السردية قيد الدراسة؟ ومن ثم هل صدقت الكتابة في إعلانها عن الهوية الأجناسية لمؤلفها؟.
- بين المرجعي الإحالي على الذات والتخييل الروائي كيف تتناس تخوم الميثاقين التيير ذاتي والتخييلي؟.
- كيف يمكن للعتبات النصية أن تشارك في حسم إشكالية التجنيس ورسم الحدود بين التخييلي والتوثيقي؟
- إنَّ الإحاطة بهذه الأسئلة المتناسلة والمتراطة ومحاولة فك شفراتها، مرتين بطرح نظري وآخر تطبيقي مردود إليه، بغية الكشف عنها والتحرري عن إجابتها.

1- السيرة الذاتية الجنس والخصائص:

السيرة الذاتية جنس أدبي معروف بمرونته وزبنيته، لذلك لازمتها مشكلات نظرية أهمها صعوبة الاتفاق على مقوماتها العامة التي تمكنها من ارتياد مكانتها الاعتبارية بين الأجناس الأدبية الأخرى، والتي نتجت عنها أموراً عدة كالتعريفات المتعددة لها، وإن تعددت هذه التعريفات وتنوعت، إلا أنَّ أهميتها وجودها تبقى قائمة؛ لأنَّ حاجة الناقد إلى ضبط المفاهيم هي حاجة ملحة تدخل في أدبيات البحث العلمي وهي شرط من شروطه.

حذر "جورج ميش" (Georg Mish) من استعصاء تعريف جنس السيرة الذاتية؛ لأنَّ حدودها مرنة وغير واضحة مقارنة بغيرها من الأجناس الأدبية، لذلك نجده اكتفى بإرجاع المصطلح إلى أصوله مجزئاً بقوله: «يمكن تعريفها بواسطة تلخيص ما يدل على مصطلح السيرة الذاتية (Auto bio grapy): وصف (Graphia) لحياة شخص (Bios) بواسطة الشخص نفسه (Auto)»¹. من خلال هذا التعريف الموجز والدقيق نفهم أن (جورج ميش) حصر مقومات السيرة الذاتية في مكون أساسي هو التطابق بين الكاتب والشخصية المحورية في النص التيير ذاتي، أي أن الذات الكاتبة هي موضوع الكتابة، وفي حال كان بالإمكان إحالة الشخصية في نص ما على المرجع يمكننا أن نعتبر أنفسنا أمام نص سير ذاتي.

أما التعريف الذي قدمه "فيليب لوجون" (Philippe LEUJEUNE) فيمكن اعتباره تعريفاً أساسياً ومرجعياً، لسببين اثنين: أولهما يعود إلى السبق الذي ظفر به هذا الناقد في مجال البحث ضمن هذا الجنس وهو بعد في مراحل التجريب الأولى وثانيهما: راجع كما هو معلوم- إلى أنَّ التعريف الذي قدمه لا يزال رائجاً ومتداولاً إلى عصرنا هذا نظراً لدقته وتماسكه رغم الانتقادات الموجهة إليه.

عرف "فيليب لوجون" السيرة الذاتية أول مرة ضمن كتابه (السيرة الذاتية في فرنسا - 1971) الذي أعاد إصداره في طبعة منقحة تحت عنوان (الميثاق السير ذاتي- 1975) وفحوى ذلك التعريف هو أنها: «حكي استيعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ

شخصيته بصفة خاصة². تمثل أركان هذا التعريف / الحد فضاء نظريا، نستشف من خلاله المقومات الأساسية والخصوصيات الفنية الهامة، التي تبرز تميز وتفرد هذا الجنس الأدبي عن غيره من الأجناس الأدبية الأخرى باعتباره جنسا قائما بذاته.

بحسب تعريفه المقدم، نتوصل إلى أنَّ مقومات السيرة الذاتية تتجلى عبر مستويات عدة، فمن حيث شكل اللغة حكى سردي مع المحافظة على خصيصة نثرية القول السيري ذاتي، ومن حيث الموضوع حياة الفرد الشخصية وتاريخه الخاص، ومن حيث المؤلف إلزامية خاصية التطابق بين هويته- بما أنَّ اسمه يدل على وجوده ككيان ذاتي واقعي- وهوية السارد قائمة في علاقة مرجعية، ومن حيث السارد فهو مطالب بالتطابق مع الشخصية الرئيسية، وهو يستعيد الحكى ويسترجعه.

استناداً إلى هذا الطرح التعريفي، نتوصل إلى مقوم هام وأساسي لها، مفاده التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية، إلا أن هذا لا ينفي بعضاً من سلبيات التعريف، إذ رغم رواجه وشهرته إلا أنه كان موضوع انتقادات عدة، من بينها اتسامه بالصرامة الشديدة إلى الدرجة التي تجعل إمكانية التصنيف تحت هذا النوع محدودة جداً، والنصوص الحديثة والمعاصرة خصوصاً ستكون الأقل حظاً في نيل هذه التسمية نظراً لتمييزها بالتنوع والمرونة.

في هذا الصدد يصف "مُجد الباردي" الحدود التي قعد لها "فيليب لوجون" بالدغمائية، هذا ما نفهمه من قوله: « وبذلك حول دراسة الأدب إلى ما يشبه المعادلات العلمية الصارمة تنفي الاختلاف والتنوع والفرضيات الممكنة وتعوزها المرونة اللازمة التي يجب أن تنظر إلى الإبداع الأدبي على أنه متطور وغير قار³. » رغم هذه الانتقادات الموجهة لهذا التعريف، إلا أننا لا نملك إلا أن نعتد به لما يتوفر عليه من قيمة تأسيسية وإجرائية، تسمح بتمييز التداخلات وتمكن من ملاحظة مواطن التهجين الأجناسي الذي أصبح السمة الأبرز لسرود الألفية الثالثة.

2- كتابة الذات بين السيرة الذاتية وفن الرواية:

إنَّ الاهتمام بـ"الذات الفردانية" في حالة تطورها ونموها المستمر عبر الحقب الحياتية المتتابعة، لم يقتصر على فن أدبي واحد، بل امتد إلى غيره من الأشكال والأجناس الأدبية، ويرجع هذا الاهتمام بدائرة "الكتابة عن الذات" "Ecriture de soi" إلى بواعث شخصية متعلقة بالإنسان وحاجته النفسية، برغبته في الحديث عن ذاته وسرد تجربته الشخصية بأشكال متعددة ومختلفة، دون أن ننسى المسوغات الفكرية والتحويلات الاجتماعية والثقافية، التي تعلي من قيمة الإنسان وحياته سواء في الشرق أو الغرب، من هنا نذكر أشكال الكتابة عن الذات وأكثرها تداولاً وانتشاراً في تشخيص التجربة الذاتية؛ ذلك أنَّ « كل كتابة تمجد الذات تعتبر كتابة ذاتية⁴. » وهي على النحو الآتي: السيرة الذاتية، الاعترافات، فن الرحلة، فن الرواية، اليوميات الخاصة، المذكرات، التخييل الذاتي، محكي الحياة.... الخ.

بما أنّ هذه السرديات الإبداعية تحتفي بـ "كتابة الذات" والحياة، برز مصطلح "كتابة الحياة" أو "كتابة الذات" مع نقاد ما بعد الحداثة، للإشارة إلى انصهار الحدود وذوبانها بين الأجناس الأدبية «وفي إطار هذه النظرة إلى النظريات الأدبية، نجد مقارنة السيرة الذاتية تأثرت إلى حد بعيد، من خلال وجود مصطلح (كتابة الذات)، الذي يطل فاعلا ومشيرا إلى كل الأشكال السردية التي تهتم بهذا المنحى، سواء أكانت الرواية أو السيرة الذاتية أو روايات السيرة الذاتية أو المذكرات أو اليوميات». هذا القول يقودنا إلى أنّ الكتابة عن الذات في مختلف تجلياتها وأشكالها، وتنوعها وتعددتها، تأخذ معيار الكتابة عن "الذات" أو "الـ أنا" أساساً لوظيفتها التعبيرية، بالبحث عن حقيقتها وهويتها، ومراقبة حركاتها وتفاعلها في الحياة.

إذا كانت السيرة الذاتية وما شاكلها من فنون تنتمي إلى فرع من فروع الأدب الذي يُعنى بالشخصية الإنسانية، فإنّ هذا يجعلها في علاقة معقدة ومتشابكة معها، نظراً لعدم وجود آليات تحيل إلى عدم تداخلها وتمازجها، مع الأشكال الذاتية القريبة منها.

ومن ثمّ، فإنّ إقحام الذات في السرديات العربية الحديثة والمعاصرة، لم يكن بطريقة اعتباطية وإنما نتج عن الوعي بالذات- باعتبارها مرحلة متطورة من الكتابة الذاتية- فضلاً عن التغيرات الفكرية والثقافية، الاجتماعية والسياسية، التي مست الكينونة البنائية للمجتمع العربي خاصة بعد التماس الحضاري والثقافي مع الغرب، مما فتح أفاق الإبداع الأدبي على أشكال وأنواع أدبية لم نشهدها من قبل.

من هذه الأجناس الأدبية نذكر "السيرة الذاتية" كمصطلح حديث النشأة في الأدب العربي الحديث والذي عرفناه في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وإن كانت بداياته وإرهاصاته ممتدة بجذورها إلى أدبنا العربي القديم.

بطبيعة الحال، نخض الحديث هنا عن الرواية الحديثة والمعاصرة، التي واكبت ولا تزال مختلف الاهتزازات السياسية والاجتماعية للعالم العربي، منذ هزيمة العرب في حزيران 1967، ووقوع الذات العربية في اهتزاز داخلي يملؤه الشك وعدم اليقين وفقدان الطمأنينة، لتطال هذه الرجة الفن الروائي في بنيته ومضمونه، بتصوير تشظي "الذات" ومساءلتها، ومنه «يولد السؤال القلق حول الوجود والمصير من وقوع الذات في قبضة الشك غير المنظم، من اهتزاز داخلي يريك لحظة الوعي»⁶. ومن ثمّ، تعتبر مساءلة الذات حسب "مُجدّ معتصم"- المرحلة المتقدمة والمتطورة من كتابة الذات.

الجدير بالذكر في هذا السياق، أنّ «ما عرفه العالم العربي خلال نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة من غزو الكويت، نشوب حرب الخليج الثانية، سقوط بغداد، واندلاع "ثورات" ما سمي بـ "الربيع العربي" جعل الرواية العربية تدخل مرحلة مختلفة سنصطلح عليها بالرواية المعاصرة»⁷. ومنه، تميز الروائي العربي المعاصر "بعمق الرؤية" بغوصه في الذات، بعدما هيمنت القيم الفردانية، وتلاشت النزعة القومية، فضلاً

عن افتتاحه على مختلف الأجناس الأدبية، محطاً بذلك مختلف الحدود والمواضع مما جعلنا أمام أشكال روائية وصيغ سردية معقدة وعصية تتسق مع تعقيدات الواقع المعاش.

مما تقدم يمكننا القول إنَّ، هذه الانتكاسات السياسية والاجتماعية، مست الكيان الوجودي للفرد العربي وحكمت بطغيان النزعة الشخصية والفردانية، إن تنامي شعور الأفراد بالتشردم والتشتت، مع ظهور ميلهم إلى الوحدة والانعزال أدى إلى بروز تيمة "كتابة الذات" كتيمة فارقة تميز الكتابة المعاصرة.

انطلاقاً مما سبق طرحه، نستشف أنَّ النزوع إلى "كتابة الذات" ليس مقيداً بشكل تعبيرى واحد هو "السيرة الذاتية"، وإنما يمتد إلى أشكال تعبيرية وأجناس أدبية أخرى، أهمها جنس الرواية. ومنه فإنَّ الصبغة الذاتية التي ميزت النصوص السردية العربية المعاصرة، ليست وليدة النزعة الشخصية فحسب، وإنما هي سلبية شروط موضوعية ذات أبعاد اجتماعية وتاريخية، سياسية وفكرية للمجتمع «ولا ينبغي النظر إلى كتابة الذات على أنها كتابة السير الذاتية ذات البعد التربوي والتعليمي، بل أقصد منها الصبغة الملائمة للمرحلة حيثُ الذات مصفاة الكتابة ومحبرتها، في تذويت الواقع والوقائع»⁸. وفي ضوء هذا الاهتمام بالذات الفردانية كاتبة ومكتوبة، ساردة ومسرودة، برز عنصر التذويت في النصوص السردية العربية.

هكذا - إذاً- تعتبر المجتمعات العربية في غمرة تحولاتها المستمرة والمتسارعة عنصراً فاعلاً في إيقاظ الحاجة إلى خطاب مختلف ميزه بزوغ الطابع الذاتي، وخاصيته "التذويت" «الذي يجعل المتكلمين في النص الروائي يبرزون خصوصية الذات المتكلمة، سواء على مستوى اللغة أو زاوية النظر والتفاعل مع الأحداث، أو تشخيص الصراع الأبدى بين الفرد ومؤسسات الدولة والمجتمع»⁹. إعلاء الذات إذن وإسراع صوتها غدا حاجة من حاجات الإنسان العربي المعاصر، لأن في ذلك إثراء مزدوج، فالكتابة عن الذات تعني تحليل التجربة الفردية من فردانيتها وتحويلها إلى تجربة موضوعية عامة من شأنها إخصاب الفكر وتعميق النقاش العام حول القضايا التي تواجهها الذات العربية، وهي أيضاً فرصة للمثقف/ الكاتب كي يقدم رؤيته للعالم وموقفه منه مع قسط موفور من الحرية. وفي ذلك إسهام من الكتابة الإبداعية في مراكمة البناء المعرفي وتوسيع آفاقه.

بناء على ما تقدم، تعتبر "كتابة الذات" خاصية تجديدية وتجريبية، على المستوى الشكلي والفني وعلى المستوى المنظوري الرؤيوي في الآن نفسه، لأنها تحاول اختراق السائد والمكرس من التقنيات والقوالب والأشكال، وتلشد الوصول إلى فضاء إبداعي هجين ومراوغ يشاكس نقاء الجنس الروائي، ويهشم بنيته المتمركزة حول التخييل مما يحول فعل الكتابة إلى فعل يسترفد التاريخ الشخصي للذات الكاتبة، ويسيقه ضمن الشرط الاجتماعي والثقافي وهذا يسمح له بأن يتحول إلى تاريخ موضوعي يجرد تجربة الذات وينقلها إلى عالم اللغة وفضاء المتخيل. وهكذا ستكون ثمة فرصة لظهور تاريخ آخر مجهول ومعتم عليه، هو التاريخ الذي سكنت عنه المؤسسة وستقول له الذوات المبدعة والحررة التي ستره حقيقاً بأن يكشف ويفكر فيه. فكتابة الذات هي كتابة

للتاريخ المهمش أيضا، لكن ضمن أشكال غير توثيقية نذكر منها: "السيرة الروائية" أو "السيرة الذاتية الروائية" أو "رواية السيرة الذاتية"، على اختلاف التحديدات الأجناسية.

إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه، في هذا السياق، هو أن تحول الإبداع الروائي العربي المعاصر، إلى "السرد السيري ذاتي"، بإعلان الكاتب عن الطابع السيري الذي يسم نصه الروائي ويميزه، يجعل من المحتوى النصي يتقاطع وجوباً ويتشابك مع تجربته الحياتية أحداثاً وواقعاً، وهو تفاعل حيوي ومشروع بين المؤلف (الخارجي / الواقعي) وقارئه لأن: «الكاتب يكتب تجربته وينقل خبرته إلى اللغة وفي النص والقارئ يقرأ ذاته في تجربة الكاتب وفي الخطاب الذي أبدعه وتخله»¹⁰. على أساس هذا الفهم المؤسس، تنصهر الحدود بين المبدع والقارئ، لاعتماده على الكشف الذاتي واستنطاقه لذاته، مما يقربه من نفسية قارئه والتوافق معه في الخصائص والسمات.

3- السيرة الروائية الإشكالية الاصطلاحية والمفهومية:

أنج التداخل بين في السيرة الذاتية والرواية أنواعاً فرعية هجينة ومستحدثة تتراوح تسمياتها بين: السيرة الذاتية الروائية، السيرة الروائية، رواية السيرة الذاتية، الرواية السيرية، رواية السيرة. وهذه كلها تعتبر ألواناً وتنوعات جديدة للكتابة السردية التي بدأت تنحو في تصميم لافت منحى التجربة الذاتية المؤهبة، متوسلة في ذلك تقنيات وأساليب مختلة وتموية، والغرض هو الوصول إلى نص تشبيكي مركب يحاكي في تعقيده تعقيدات العالم وهلامية التجربة الانسانية المعاصرة، إن التماهي القائم بين السيرة الذاتية والرواية وضبابية الحدود بينها هو تمثيل واضح لتجربة الانسان المعاصر، هذه التجربة التي تشهد انهيارا تاما للحدود بين الحقيقي والخيالي بين المعيش والافتراضي بين التاريخ الشخصي وتاريخ الآخرين حيث لم تعد ثمة خصوصية في أي مجال من المجالات.

إن السياق المعرفي والشرط التاريخي لظهور هذا النوع خلف أثرا بالغاً على مستوى الخيارات التي يتم الأخذ بها على مستوى الممارسة، حيث غالبا ما تبدو خيارات مرتبكة وغير واثقة من نفسها، خصوصا وأن المرافقة النقدية تعاني هي الأخرى تمللا واضحا أكثر ما يتجلى في التردد الاصطلاحي والاضطراب المفاهيمي، فالإشكالية لم تبق محصورة في الحدود الأجناسية وضوابطها، وإنما امتدت حسب ما نرى إلى الإشكالية الاصطلاحية؛ ذلك أن النقاد المعاصرين لم يتوصلوا إلى اعتماد مصطلح موحد، يسمي هذا النوع ويحمله من الالتباس بالأنواع الأخرى، وفي ظل غياب الضبط المصطلحي نطرح التساؤل الآتي:

ما هو مفهوم السيرة الروائية؟ وما هو المصطلح الآخر القريب منها والمرادف لها؟

السيرة الروائية من أبرز المصطلحات التي استخدمها "عبد الله إبراهيم" في مقارنته لعدد من النصوص الإبداعية العربية وهي عنده «كتابة مبهجة من نوعين سرديين معروفين، هما: السيرة والرواية ولا يقصد بالتهجين معنى سلبيا»¹¹. معنى هذا أن كلمة مبهجة التي اتسمت بها السيرة الروائية، ليست صفة قدح تدفع بنا للطعن

في شرعيتها؛ إنما هي تعبر عن الطابع التوفيقي والتركبي الذي يميزها، فحسب "عبد الله إبراهيم" إن السيرة الروائية تمثل تركيباً لعناصر شرعية مؤسس لها تأسيساً فنياً رصيناً، لم تر بأساً في استعارتها وتوظيفها بما يتسق مع الشكل الجديد.

في إطار هذا التوجه المرتبط بالوضع الخاص للسيرة الروائية، يقدم الناقد مفهوماً لتحديد ماهية المصطلح بقوله: «السيرة الروائية هي "نوع" من السرد الذي يتقابل فيه الراوي والروائي، ويندرجان معاً في تداخل مستمر يكون الروائي مصدراً لتخيلات الراوي، فالكيان الجسدي والنفسي والذهني للروائي يُشرح ويعاد تركيبه، فتشحن التجربة الذاتية بالتخيل فينزح عن الهوية السردية شرط المطابقة مع المرجعيات الخارجية»¹². إنَّ هذا المفهوم يتطلب تفسيراً مردّه إلى أنَّ الناقد في طرحه هذا يستمد مشروعية مفهومه من خلال استحضاره الذهني للسيرة الذاتية، القائمة على معيار المطابقة، والابتعاد عن الخيال، في حين أنَّ السيرة الروائية تنقص فيها درجات المطابقة، وتزيد درجات الخيال.

ومن ثم، إذا كان الراوي يتقابل مع الروائي ويتداخل معه، فإنَّ هذا ليس من باب نقل التجربة الذاتية الحقيقية للروائي، وإنما من باب إضفاء الطابع التخيلي على الوقائع والأحداث، مما يجعلنا أمام خطاب سردي هجين يجمع بين الواقعي التاريخي والتخيلي.

في ضوء هذا التداخل الأجاسي والتقارب المصطلحي، ارتأينا الوقوف عند مصطلح هام، لرواجه في الدراسات الأدبية والنقدية وهو "السيرة الذاتية الروائية"، التي استعملت كمرادف "للسيرة الروائية". تبعاً لما سبق، وعلى خلفية التاريخ الأدبي لهذه الأنواع الأدبية الهجينة والمعقدة، والمستعصية على التمييز والفرقة فيما بينها نعود إلى التصور النظري والنقدي الذي قدمه الناقد الفرنسي "جورج ماي" (George May) في كتابه السيرة الذاتية، باعتباره رائداً في هذا المجال، بمحاولته الجادة والقيمة في التفصيل الواسع بين هذه الأنماط المتنوعة والمركبة، والتي تنقلنا من نوع إلى آخر من ضروب الكتابة السردية.

بناءً على هذا التقسيم وتفصيلاته المقدمة، نقف على الصنف الذي جاء به هذا الناقد وهو "السيرة الذاتية الروائية"، إذ يعتبر أول من أطلق هذا المصطلح عام 1979، في مقارنته النظرية لجنس السيرة الذاتية، ومن ثمَّ فهو يفرق بين هذا النوع الأدبي الهجين- السيرة الذاتية الروائية- و"الرواية السيرة ذاتية" بقوله: «أما الرقعة الخامسة ذات اللون الأصفر فيمكن أن نسميها بالسيرة الذاتية الروائية، وهي خلافاً للرواية السيرة ذاتية لا تنتسب إلى الرواية، وإنما تنتسب إلى السيرة الذاتية وإن شأها لا محالة شيء من الخيال كثير»¹³. وعليه، فهو يجعل من العنصر السيرة ذاتي والعنصر التخيلي أساساً للتمييز بين هذين الشكلين من الهجينة، فإذا غلب العنصر السيرة ذاتي على النص السردية انتسب إلى جنس السيرة الذاتية، وإذا غلب العنصر التخيلي بمرجعيتها الروائية انتسب طوعاً إلى جنس الرواية.

تماشياً مع ما تقدم، نذكر أنَّ مصطلح "السيرة الذاتية الروائية" قريب من مصطلح "السيرة الروائية"، وكثيراً ما استخدمنا كترادفين، وقفنا على ذلك مع "عبد الله إبراهيم" مثلاً في كتابه "السرد والاعتراف والهوية" الذي تطرق فيه إلى نسق العلاقات الجامع بين الرواية والسيرة الذاتية وفق ما جاء به "جورج ماي"، وهو إذ ذاك يقابل مصطلح "السيرة الذاتية الروائية" بمصطلح "السيرة الروائية" ويصف تلك العلاقة في قوله: «تستمد "السيرة الروائية" عناصرها إذن من "الرواية" ومن السيرة الذاتية. إنها تؤسس وجودها مجازياً في التخوم الفاصلة فيما بينها»¹⁴. وعليه، يُعتبر هذا التقارب والتداخل في المصطلحات والتسمية، نتيجة وقوع هذا النوع من الكتابات في المنطقة البينية بين تخوم الأجناس الأدبية.

في مسعى المقابلة بين المفهومين دائماً نستحضر التعريف الذي قدمه "سعيد جبار" للسيرة الذاتية الروائية والذي مؤداه: «السيرة الذاتية الروائية تعتمد السرد بضمير المتكلم ونلاحظ نوعاً من التقارب بين المؤلف والشخصية، وهذا التقارب لا يصل إلى درجة اعتبار الشخصية الفاعلة هي المؤلف مادام يوجد اختلاف بينهما، ولم يؤشر الكاتب في بداية الرواية على هذا التطابق من خلال الإعلان عن سيرة النص»¹⁵. ومن ثم، فإنَّ معيار المطابقة التام بين المؤلف والشخصية الفاعلة في النص يتنافى، رغم درجة التشابه والمقاربة.

بناءً على ما تقدم، يقترب هذا المفهوم بشكل واضح من مصطلح "السيرة الروائية" حسب مفهوم "عبد الله إبراهيم" بحسب ما نقرأ في قوله: «فلا تنقيد الشخصية بشروط السيرة الذاتية التي تقتضي مطابقة مع أحداث التاريخ، ولا تتحلل منها كما هو الأمر في الرواية؛ إذ لا ينص ميثاق السرد تلك المطابقة، فدمج الخطاب بين الروائي والراوي، فهذا مكوّن متلازمان لعلامة جديدة هي "السيرة الروائية"»¹⁶. انطلاقاً من هذا التفصيل، نستشف أنَّ "السيرة الروائية" نوعٌ أدبي هجين، يتسم بالمرونة لأنَّ المؤلف يتحرر في كتابته لذاته بطريقة تمويهية وانتقائية، بما يتناسب مع متطلبات السرد والعالم المتخيل، ومن ثمَّ يتحرر من القيود التي تفرضها السيرة الذاتية الخالصة.

ندرك من ذلك، أنَّ نسبة التخييل تزيد في "السيرة الروائية" عما هو متوفر في "السيرة الذاتية"، إلا أنها تبقى أقرب إلى السيرة لأنَّ: «الروائية هنا صفة للأسلوب ولما يقتضيه من إضافات تخيلية محدودة، تسمح بها متطلبات المتعة الفنية والسردية»¹⁷. وعليه، تمنح هذه الممارسة الكتابية الهجينة، للمؤلف هامشاً مريحاً من الحرية يسمح له بتقديم تجربته الإنسانية، بكل خياراتها ورؤاها، ومنظوراتها ومواقفها، للقارئ دونما محاذير أو توجسات مستغلا الإمكانيات التخيلية التي يتيحها هذا الجنس. وهكذا يتم اصطناع فضاء ثالث تمارس فيه الذات حريتها في تمثيل ذاتها كما يسمح لها بتمثيل العالم وفق منظوراتها وتجزئاتها هي.

4 - "أصبحت أنت" / فاعلية العتبات النصية المحيطة كؤشر سير ذاتي في السيرة الروائية:

العتبات النصية هي علاماتٌ أساسية تعيينية توجيهية، تتعاقد مع النص المركزي في تقديم مقوله، بما تتضمنه من محمولات موحية تعمل على توجيه القارئ وإحمامه في جو النص / الداخل، إنها تمارس وظائف

خادمة ومكاملة تسمح بإنتاج المعنى وإخصابه، وفي حال كان النص يجول في فضاء بيني فإن هذه العتبات ستتحول إلى مفاتيح حقيقية لا يمكن الاستغناء عنها في عملية تلقي النص وتفسيره، ذلك أنه من غير المجدي عزل مسار التفسير ومرجعياته عن الصفة الأجناسية للنص.

بناء على الصلة النوعية بين النصية والنص - سواء أكانت عتبات محيطية داخلية أو عتبات محيطية خارجية- ارتأينا التركيز على العتبات النصية في السيرة الروائية لـ "أحلام مستغاني" "أصبحت أنت"، باعتبارها أجهزة إجرائية وافتتاحات خطابية دالة وفعالة على مستوى التشكيل «فضلا عن سعيها لتقنين مسألة الغموض الدلالي الأجناسي، والنصي والتأليفي»¹⁸. وعليه، نطرح التساؤل الآتي: ما طبيعة العلاقة بين العتبات النصية المدرجة في بنية النص المركزي "أصبحت أنت" والتشكل الأجناسي السير ذاتي؟.

أ- عتبة العنوان "أصبحت أنت" وعلاقته بالمؤشر السير ذاتي:

إن العنوان هو مناص البداية والبوابة الأولى التي نلج من خلالها إلى النص، باعتباره ملفوظا محملا بفكرة جوهرية خفية ذات امتداد وتواصل مع النص المركزي، ومن ثم فإن العتبة العنوانية "أصبحت أنت" تعد مصدرا أساسيا لبناء تصور أولي حول دلالة النص ومحملاته.

فتاء المتكلم في كلمة (أصبحت) تحيل إلى ذات تبوح وتعرف بأن هويتها الذاتية والشخصية في تقاطع وتماس مع هوية أحد الشخصيات الرجالية (ضمير المخاطب أنت) لدرجة التطابق والتماثل، وهذا إن نم على شيء إنما ينم على وعي هذه الذات بشخصيتها متجهة في ذلك نحو السرد الذاتي، وعليه فإن استراتيجية البوح والاعتراف في العتبة النصية الأولى المحيطة بالنص، تجعلنا نستشف أن الكاتبة وصلت إلى مرحلة من حياتها مانحة للاعتراف بأن ذاتها منصهرة في كينونة ذاتية رجالية في غياب للاستقلال الذاتي، مما يقضي بنا إلى اعتبار عنوان "أصبحت أنت" عتبة عنوانية سير ذاتية تشير إلى تجربة سيرة للذات الكاتبة تختزل فيها أحداثا ذاتية تأخذ مجراها في الفعل السردي بمرجعياته الواقعية والتخييلية، مما يؤكد بطبيعة الحال على الترابط المنطقي دون مفارقة بين العنوان والنص المركزي مثل ما هو الأمر في بعض من النصوص السردية الروائية.

تبعا لما تقدم، وبما أن العنوان الرئيس يأخذ مجراه في هذا المقال كمؤشر سير ذاتي، فإن العنوان الفرعي/التعيني الموسوم بـ "سيرة روائية" المدرج على الغلاف يساهم في ضبط الهوية الأجناسية للنص وتأطيره، فضلا عن أنه فاعل محرك غير ساكن يمكننا من الإمساك بالعلاقة التفاعلية والتشابكية بين هذه العتبة النصية التعينية/الأجناسية، وبين تشكل معاني النص المركزي ومدلولاته، والصلة الترابطية القائمة بينهما، ومن ثم فإن هذا الأمر يستدعي الوقوف عند هذه العتبة التعينية الفرعية وتبيان حدود تشكلها في نسيج النص السردي قيد الدراسة.

ب- السيرة الروائية بين الميثاق السير ذاتي والميثاق الروائي:

إنّ هذا المناس الإجرائي يمكّن القارئ من استجلاء خيارات الذات الكاتبة في بناء النصّ وتشكيله الذي كسرت فيه الحدود والمواضعات الأجناسية، بإعلانها عن ميثاق قرائي هجين قوامه الجمع بين جنسين أدبيين هما: السيرة الذاتية والرواية؛ ذلك أنّ «كل تسريد للحقائق أو الأحداث يولد بالضرورة عملية تخيلية»¹⁹. الأمر الذي يشي بخصوصية المؤلف وطبيعته من جهة، ويوحى بمقصدية الكاتبة التي تنحوا منحى (سرد الذات) من جهة ثانية، على إثر ذلك عد لزاما فحص الميثاق السّير ذاتي والميثاق الروائي وتطهراتها في النصّ.

ب1- تجليات الميثاق السّير الذاتي وحدود تشكيله في (أصبحت أنت):

عودٌ على بدء، نبين أنّ الميثاق السّير ذاتي هو مرجع من مرجعيات القراءة، من وظائفه تحديد زاوية التلقي ومستوياته، فهو يضبط العلاقة بين مؤلف السيرة الذاتية وقارئه ويعين - تبعاً لذلك - الحدود النوعية للنص بعده سيرة ذاتية محضة، ومن ثمّ فإنّ هذا الميثاق السّير ذاتي - حسب ما جاء به "فيليب لوجون" - يتحقق انطلاقاً من مبدأ هام وأساسي هو مبدأ التطابق، بناءً على هذا الطرح «تفترض السيرة الذاتية (القصة التي تحكي حياة المؤلف) أن يكون هناك تطابق الاسم بين المؤلف (كما يدرج عن طريق اسمه في الغلاف) وسارد الحكيم، والشخصية التي يتم الحديث عنها»²⁰. ومنه، فإنّ هذا الميثاق السّير ذاتي يقوم على التطابق الكلي بين أركان السرد الثلاثة (المؤلف، والسارد، والشخصية الرئيسية) وهو يتحقق انطلاقاً من الإعلان المباشر الصريح أو الضمني من خلال مؤشرات بيئية مبنوثة في النسيج النصي.

وإذا ما عدنا إلى السيرة الروائية "أصبحت أنت" لـ "أحلام مستغاني"، وجدنا أنّ الكاتبة توثق العلاقة العضوية الواصلة بينها وبين نصّها وقارئها، بواسطة الميثاق السّير ذاتي القائم على مبدأ التطابق والذي يتحقق في النصّ المدروس بوجهيه الجلي المباشر والضماني الخفي؛ التطابق الجلي المباشر ويتحقق باسم العلم "أحلام مستغاني" المعروف على غلاف المؤلف وهو نفس اسم ولقب الكاتبة الحقيقي، والذي يتقاطع في الآن نفسه مع الاسم والانتفاء العائلي للساردة والشخصية المركزية في بنية النصّ.

ندلل على ما تقدم، مما جاء في نصّها «أنجبتني أمي مرّة، وأنجبتني الحبّ مرارا. محكومةً بالحلم المؤبد مذ أسميتني أحلام. لماذا اخترت لي اسماً جمعاً إن كنت تعلم أنّ قدرتي أن أنشظى؟»²¹. إنّ هذه الوحدة السردية تحيلُ إلى أنّ الكاتبة هي الساردة والشخصية المركزية في الآن نفسه؛ ذلك أنّ البطلة تستشعر الرغبة في عتاب والدها "مُجد الشريف مستغاني" الذي أعطاهها اسماً جمعاً محملاً بالأمني والطموحات التي يرغب الإنسان في تحقيقها عبر تعاقب الزمن وتوالي السنين.

تواصل ذلك بقولها: «من أين جئت باسم خارج عن قاموس ذلك الزمان؟. ألكي أحرس أحلامك؟ أم لأكون لك الحلم؟»²². ومنه، نبين تبعاً أنّ زمن الثورة والنضال استحضّر اسم "أحلام" التي كانت حاملة للارث النضالي ولا زالت بقلمها الداعم والمساند للقضايا الوطنية والقومية، عساها تحقق به أحلام والدها التي

اغتنيت ظلما وقهرا، أوليست هي المصححة في أحد لقاءاتها قائلة: «الكتابة تصفية حسابات، كتبتُ الثلاثية لأثر لأبي»²³. وكتبتُ "أصبحتُ أنت" لتخليده بقلمها كشخصية فضالية تاريخية فذة، كان لها أهمية مركزية في تكوين شخصية أحلام الثقافية والفكرية والإنسانية.

ندرك من ذلك أنَّ، التطابق الكلي بين أركان السرد الثلاثة (المؤلف، السارد، الشخصية المحورية) تحقق في هذا العمل الأدبي من قبل الميثاق السير ذاتي الصريح والمعلن باسم العلم المدون على الغلاف، والذي يتطابق مع الثلاثي المذكور آنفا، خاصة مع كشف الكاتبة عن انتابها العائلي في نصها، ومن ثمَّ فإنَّ اسم العلم يكتسب أهمية بالغة في الكشف عن الميثاق السير ذاتي في الأعمال الأدبية.

في سبيل تبيان الميثاق السير ذاتي وتجلياته في النص، ننقل من التطابق الجلي الصريح، إلى التطابق الضمني الذي نستشفه من استعمال الكاتبة "أحلام مستغاني" لضمير المتكلم بطريقة تجعل القارئ يعتقد مصداقاً أنَّ الساردة هي المؤلفة ذاتها، فمنذ الصفحات الأولى للعمل الأدبي "أصبحتُ أنت" نلاحظُ محكما ذاتيا بضمير المتكلم كعتبة أولى، يمثله ضمير المتكلم "أنا" ومختلف الضمائر الأخرى التي تنوب عنه وتتناوب معه، مشكلة في مجملها تقنيات فنية بارزة في السرد السير.

ما يشهد على ذلك قولها: «أكنت معك أتمرن على دور شهرزاد، جدة الروايات، وأنا جالسة مساءً على طرف سريرك، أحكي لك تفاصيل يومي، بدهشة الانبهار الأول بالعالم، متفنتة في سرد حكايتي الصغيرة واكتشافات كانت تبدو لي كبيرة»²⁴. من هنا، يمكننا القول إنَّ "أحلام مستغاني" استعملت شكلا من أشكال التعبير التلفظي في الزمن الماضي، من خلال الضمير المتكلم (أنا) والمتصل (كنت، أحكي، يومي، حكايتي) فيبدو الحدث منقضا في الزمن مستعدا في الحكي مما يشد القارئ إلى ميثاق السيرة الذاتية.

بهذا المعنى، تكون الذات الساردة والشخصية المحورية في الآن نفسه ملتزمة أمام القارئ بوظيفة إحالية ذلك أن الضمير المتكلم "أنا" يحيل إلى ذات وجودية لها مقابلها الفعلي والواقعي، وهي الذات المؤلفة المدون اسمها على الغلاف ومن ثمَّ، فإنَّ هذه المروحة بين الـ "أنا" التلفظي والـ "أنا" الواقعي تقوم على سرد تجربة ذاتية قائمة على مكونين أساسيين هما: الماضي والذاكرة، وما ينبغي أن ننوه إليه هنا هو أنَّ هذا التجلي للميثاق السير ذاتي والذي حرصت الكاتبة على إبرازه من خلال المؤشرات السابقة، كفيل بمنح هذا العمل السردى هويته التصنيفية، وقيمتها الواقعية والمرجعية، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ الواقعية هنا لا تعني النقل الحرفي والمطابقة المرآتية بين التجربتين الإنسانية والابداعية.

ب- 2 تمثلات الميثاق الروائي في "أصبحتُ أنت":

في هذا السياق المبني على موثيق الكتابة ينبغي الإشارة إلى ميثاق آخر أضافه "فيليب لوجون" إلى الميثاق السير الذاتي، هو "الميثاق الروائي" الذي يقوم على نفي التطابق، إذ لا تحمل الشخصية البطلة اسم المؤلف المدون على الغلاف، وقد ميزه هو الآخر بخاصيتين: «أولها تطبيق جلي لعدم التطابق (إذ لا يحمل

المؤلف والشخصية نفس الاسم)، والثاني تصريح بالتخييل (العنوان الفرعي رواية) على العموم هو الذي يؤدي اليوم هذه الوظيفة على الغلاف، مع ملاحظة أن رواية تعني، في المصطلحات المعاصرة، ميثاقاً روائياً²⁵. وهذا يفضي بنا إلى القول إن الميثاق السير ذاتي يمتاز بالتصريح بالحقيقة والصدق، في حين أن الميثاق الروائي يتسم بالتصريح بالطبيعة التخيلية تمويها ومواربة.

بناءً على هذا الطرح، واعتباراً لما تقدم التقصي عنه، نستنتج أن العتبة التعيينية الفرعية "سيرة روائية" قائمة على ميثاقين هما: الميثاق السير ذاتي والميثاق الروائي، أبرمتها المؤلفة "أحلام مستغاني" مع قارئها؛ ذلك أن الميثاق السير ذاتي تجلّي في العمل الأدبي "أصبحت أنت" بوجهيه، في حين أن الميثاق الروائي تجلّي من خلال مظهره الثاني الذي تمثله التركيبة اللغوية "روائية"، والتي تعني أن الكاتبة تصرّح بأنها تنقل تجربتها الذاتية إلى القراء في قالب في مستحدث هجين، يجمع بين المرجعي الحقيقي التابع للسيرة الذاتية وبين التخيلي المحال عليه من خلال الرواية.

مرّد ذلك - حسب ما نقرر - إلى أمرين: الأول وهو راجع إلى عجز الذاكرة عن إعادة واسترجاع أحداث حياتية من الماضي بكل تفاصيله وأحداثه، فتتراجع نحو الخيال الذي من شأنه أن يملأ تنوّعاتها ويسد فراغاتها، مع الوعي بمحدودية هذه الإمكانيّة والاقتصاد فيها ما أمكن، ورد في النص «ما الحلّ أتذكر أشياء لا يمكن كتابتها، وأنسى أشياء تمنيت لو كتبتها»²⁶. والآخر راجع إلى رغبة المؤلفة الذاتية في التعميم على بعض الحقائق أو إخراجها من سياقها، ووضعها في سياق جديد مخالف كفيلاً بمنحها معنى جميلاً يمجّد الذات ويبيض صورتها.

يمكن إضافة سبب ثالث لذلك التناوب الحاصل بين المرجعي والتخيلي، يتمثل في ممارسة لعبة التموه هرباً من الرقابة المؤسسية (الاجتماعية والثقافية والسياسية)، وهذه الإمكانيّة التي تفتحها الكتابة السير روائية تعد مكسباً عظيماً في مجال ممارسة الخطاب المضاد.

هذا كله وسواه، يقودنا إلى نتيجة مؤداها: أن التصريح بتخيلية النص نفى عنه الالتئام الحصري للخطاب السير ذاتي، ووضعه على تخوم المحكي الروائي خصوصاً والكاتبة "أحلام مستغاني" تعلن منذ البداية اعتمادها على التقنيات السردية الروائية في سرد سيرتها والتخييل في مقدمتها، وفي هذا خرق صريح للميثاق السير ذاتي، هذا مع تسجيل خرق آخر تم على مستوى الإخلال بمفهوم "فيليب لوجون" للسيرة الذاتية والذي يقضي بمركزية التاريخ الشخصي للذات الكاتبة ضمن المحكي.

وإذا كان على الكاتب في السيرة الذاتية أن يصب اهتمامه على «حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة»²⁷. فإن أحلام مستغاني لم تستجب لهذا المطلب ولم تحقّقه على مستوى نص "أصبحت أنت" ومنه، نستشف أن هذه الكتابة قريبة إلى الكتابة الروائية.

ذلك أن الساردة تقوم بفعل المحكي بطريقة ثنائية ومزدوجة جامعة بين سيرتين: سيرة الآخر (الأب) وسيرة الذات (الابنة) في تعاقد توثيقي من المؤلفة التي حاولت أن تبين من داخل التسيج النصي بأنّها في حالة

تماثل وتماهي مع والدها بطولاته الرجولية الفذة، وإن كانت بطولته هو بطولة حرب وجهاد ونضال، فإنَّ بطولتها هي بطولة لغوية وإبداعية، ومن ثمَّ فإنَّها "هي" تنطبق مع "هو" وتتماهى في ذاته تمجيدا وإكبارا، لذلك فهي تتبنى خطابه المضاد والرافض والناش في الملفات الشائكة والغائرة في جراح الوطن، وتمارسه وإن بأدواتها الخاصة تقول: «لعنثُ لصوص الأوطان، بغضبك أنت. طاردتهم كتاباً بعد آخر، كما كنت لتفعل»²⁸. وفي الأخير يمكننا القول إنَّ هذا التحرر الواضح في الانتقال بين التاريخ والتخيل مع نزوع مكثف نحو تقنيات الثاني (التخيل) أن خيار المؤلفة الأجناسي كان خياراً محكوماً بانحيازها الروائي الذي هو ملعبها منذ البداية، وموجهها بموقفها النقدي من العالم، إنها تمارس فعل الكتابة السيرورائية من منطلق تفكيكي يستهدف فهم العالم وإدراكه من خلال تماثلات الذات له.

انطلاقاً من هذه التفصيلات واستناداً إلى ما جاء به "جورج ماي" بقوله إنَّ: «السيرة الذاتية الروائية (...) لا تنتسب إلى الرواية، وإنما تنتسب إلى السيرة الذاتية وإن شأها لا محالة شيء من الخيال الكثير»²⁹. نوضح وإن كانت نسبة التخيل هي نسبة عالية في "أصبحت أنت" إلا أنها أقرب إلى الميثاق السير ذاتي الذي تجلّى من خلال مبدأ التطابق الثلاثي بين (المؤلف، والسارد، والشخصية)، ومنه فهي - حسب ما توصلنا إليه - تنتمي إلى السيرة الذاتية أكثر من الرواية لغلبة العنصر السيري على النص السردية وإن كانت هناك صيغ فنية متخيلة فهي من باب إضفاء المتعة الفنية والجمالية السردية.

ج - الصورة الفوطوغرافية ودلالاتها:

إنَّ الصورة الشَّخصية المدرجة على غلاف العمل الأدبي، هي عتبة نصية ومكوّن خطائيّ موجهٌ للنَّص وموثق له، ويمكن عدها وثيقة داعمة ومعززة لأي نص يحمل دلالة سيرية، لأنها تحمل بعداً أيقونياً يبرره التمثيل البصري الذي تقدمه، تمثل الصورة علامة سيميائية يمكن أن تشكل مدخلاً مهماً من مداخل التحليل النصي وداعماً دلالياً لمحموله اللغوي لذلك «فإنَّ ما يعرض قابلية ظهور الذات للرؤية إنما هي الصورة الفوطوغرافية نفسها فقط»³⁰. حسب تعبير "هيوغ سلفرمان".

نعثر على هذه الوسيلة الفنية في المدونة المدروسة متجلية تحديداً على غلاف "أصبحت أنت" وسواء أكان هذا تدخلاً من المؤلفة نفسها، أو اجتهداً من طرف المصممة التي كلفت بتصميم الغلاف من قبل دار النشر فإنها ذات معنى، لقد تم إدراج صورة شخصية لـ "أحلام مستغاني" من القرن الماضي في الواجهة الأمامية لغلاف كتابها، في حين تم إدراج صورة فوطوغرافية أخرى لوالدها "مُحمَّد الشريف مستغاني" على الغلاف الخلفي لعملها، ومن ثمَّ فإنَّ هاتين الصورتين الحقيقيتين الملتقطتين بتقنية التصوير الفوطوغرافي، هي لغة ثانية تنصوي على معاني عدة، وعليه نطرح التساؤل الآتي: ما هي الدلالات التي يمكن استخراجها من الصورتين؟.

الملاحظ أنَّ، صورة الابنة ووالدها بالأبيض والأسود، تحمل دلالة التقارب الزمني الذي يجمع بين الشخصيتين كما تجسد تشابها في الملامح، والوجود؛ فإذا تأملنا وجه صاحبة الصورة "أحلام مستغاني" وصورة والدها "محمد الشريف" وجدنا تماثلا في سحنة الوجه، ويربطنا بين هذه الطلعة الشبابية وبين أصحابها توصلنا إلى القول إنَّ هاتين الصورتين الفوتوغرافيتين الماضويتين وسيلة فنية لاستحضار واستعادة ماضي الابنة والأب معاً، والذي كان له حضور جلي في تشكيل مسار الأحداث ضمن المتن الحكائي لـ "أصبحت أنت"، ومن ثمَّ نقول إنه وإن تناثر هذا الماضي واختفت بعض من وجوهه، وتقدمت السن ببعضها الآخر، فإنَّ سيرة الذات تبقى حية في وعي الكاتب، تمارس حضورها عليه وتفرض تأثيرها على رؤيته للحاضر، كما تحدد الإطار الفكري الذي يؤسس للتعاطي معه.

محصلة القول إنَّ، تصميم الغلاف مع الصور المدرجة فيه - هو في اعتقادنا - كان خياراً موفقاً إلى حدٍ بعيد، خاصة مع ذلك التوازي المقام بين الصورتين على مستوى الواجعتين الأمامية والخلفية، والذي يوحي بأن الحاضر / الابنة هو واجهة للماضي / الأب واستمرار له في الآن نفسه. هناك إذن علاقة مرجعية عمودية تجذر علاقة التجاور التي يكشف عنها المناص وتمنحها معنى ذا بعد دلالي متسق مع المتن ومع الجنس الأدبي أيضاً وعليه فإنَّ المكون البصري الفوتوغرافي في هذا العمل السردي كان أيقونة فاعلة عززت سيرية النص وأكدها.

د- عتبة الإهداء:

إنَّ الإهداء من العتبات النصية المحيطة بالنص والمخاضية له، بوصفها «أول لقاء مادي ومحسوس بين الكاتب والقارئ»³¹. ومنه، فهو يُعدُّ مدخلاً قرائياً أولياً هاماً بعد العنوان، بما يحمله من أبعادٍ وظيفية ودلالات معينة، تأسيساً على هذا نطرح التساؤل الآتي: ما هي طبيعة العلاقة التي تربط بين "الإهداء والنسيج النصي" أصبحت أنت؟.

جاء الإهداء في هذا العمل السردي بعد العنوان وفي صفحة مستقلة على النحو الآتي:

«أي.

أهديك هذا الكتاب،

مطمئنة أنك لن تقرئيه، ولن تحاسبيني عمّا جاء فيه،

اعتبره هدية متأخرة من أبي،

فلا تواصل معاتبتة (هناك).

برغم كل شيء، لقد أحبك...»³².

ومنه، فإن هذا الإهداء يُعد نصاً إرسالياً تواصلياً دالاً، موجهاً ومبشوراً من المؤلفة "أحلام مستغاني" إلى قرائها عامة، وإلى المهدي إليهما خاصة وهما والداها، ومن ثمَّ فإنَّ إهداءها هذا هو إهداء خاص؛ لأن هناك قرابة عائلية وجدانية وعاطفية تجمع ثلاثتهم.

من خلال استعادة الكاتبة لهذين الشخصين استعادة صريحة، نجد أنَّ في اختيارها لكلماتها وتشكيلها لعباراتها، ما يوحي بطبيعة النص السيرية تقول: «لن تقرئيه، لن تحاسبنني، لا تواصلني معاتبته (هناك)»³³. وهذا إن لم على شيء إنما يُنم، على أنَّ هناك تيمة جوهرية سينبني عليها النص وتتوجه إليها رغبة الكاتبة، وهي تيمة البوح والاعتراف بأحداثٍ نحت عن مسامع والدتها.

تبعاً لذلك، نستشف أن هذا النسق الإهدائي إهداءً تشاركيٍّ من الكاتبة العالمة بأسرار والدها، وإهداء بالوكالة عن الأب إلى الأم، واعتذار مسبق عما سيتم الاعتراف به ضمن المتن السيري، ومن هنا نلاحظ أن هذه العتبة النصية تلتقط تيمات النص ودلالته، وتستدرج القارئ وتوجهه، لقراءة النص المركزي وتساعد في الكشف عما خفي من حياة أحلام ووالدها، وخفي حتى عن الأم التي تعترف بأحلام بأنها محقة في عتابها لها.

جملة القول إنَّ، هذه العتبات النصية المحيطة في هذه السيرة الروائية تضطلع بدور مركزي هام وأساسي، وهو الإعلان عن الطبيعة التعيينية للنص، والحفاظ على هويته الأجنبية، ومن ثم فهي داعمة ومعززة للطابع السيري ذاتي الذي يتسم به النص عموماً.

خاتمة:

لقد أفضى بنا البحث في السيرة الروائية "أصبحت أنت" لـ "أحلام مستغاني" إلى التوصل لجملة من النتائج نضعها على النحو الآتي:

- السيرة الروائية في هذا العمل السردية مضت في شكل أدبي هجين، جمع بين سيرتين سيرة كبرى (سيرة الأب) سيرة صغرى (سيرة الابنة)، ومن ثم فهي طريقة مبتكرة في سرد الذات إبداعاً وجدة، نأت فيها "أحلام مستغاني" عن المتداول والمعهود في كتابة السيرة الذاتية.
- إنَّ التحرري عن الهوية الأجنبية للنص، جعلنا نتوصل إلى أنَّ الكاتبة صدقت في التعيين الجنسي لمؤلفها، دون التستر وراء الميثاق الروائي (رواية) في كتابة سيرة حياتها، على خلاف بعض من الكاتبات العربيات اللواتي خضن غار الكتابة عن ذواتهن في استبعاد تام لأي تأويل يعتبر نصوصهن سيرة ذاتية.
- تتأرجح سيرة "أحلام مستغاني" الروائية، بين الإحالي الدال على الذات والواقع، والتخيل الروائي، ومن ثم فإنَّ حرصها على كتابة سيرتها بلغة أدبية شاعرية ورمزية، يجعل من الفصل بين السيري والتخيلي في غاية الصعوبة بل ويمتد إلى استحالة ذلك.
- إنَّ هذا القالب الأدبي الهجين الموسوم بـ "سيرة روائية" يعتبر ملاذاً للمرأة الكاتبة عن ذاتها؛ لأنه جنس أدبي أكثر تحملاً وانعتاقاً من جنس السيرة الذاتية.
- إنَّ العتبات النصية المدروسة كشفت عن سمة التواضع الجنسي بين السير ذاتي والتخيلي، لكنها كانت بحاجة للولوج إلى داخل النص لاستنطاقه والإعلان عن هويته.

هوامش:

- ¹ - صالح معيض الغامدي: كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، (2013م)، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، ط1، ص12.
- ² - فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، (2008م)، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، ط1، ص12.
- ³ - محمد الباردي: عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، (2008)، مركز الرواية العربية، (تونس)، ط1، ص12.
- ⁴ - محمد معتصم: التخييل المختلف دراسات تأويلية في الرواية العربية المعاصرة، (1435هـ - 2014م)، منشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط1، ص226.
- ⁵ - عادل الدرغامي زايد: إشكالية النوع والتجنيس السيرة الذاتية نموذجاً، 1429هـ - 2008م، مجلة علامات في النقد، المملكة العربية السعودية، مج17، ج65، ص191.
- ⁶ - محمد معتصم: التخييل المختلف، مرجع سابق، ص227.
- ⁷ - الكبير الداديسي: مسارات الرواية العربية المعاصرة، (2018م)، مؤسسة الرحاب الحديثة، (بيروت - لبنان)، ط1، ص12.
- ⁸ - محمد معتصم: قراءة الرواية وكتابة الذات، دراسات في تجريب الرواية العربية، (2016م)، دار فضاءات، (عمان - الأردن)، ط1، ص8.
- ⁹ - محمد براءة: الذات في السرد الروائي دراسات نقدية، (2010م)، دار أزمّة، (عمان)، ط1، ص6.
- ¹⁰ - محمد معتصم: قراءة الرواية وكتابة الذات، مرجع سابق، ص16.
- ¹¹ - عبد الله إبراهيم: السرد و الاعتراف والهوية، (2011م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت - لبنان)، ط1، ص173.
- ¹² - المرجع نفسه، ص173.
- ¹³ - جورج ماي: السيرة الذاتية، (2017م)، تر: محمد القاضي - عبد الله صولة، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط1، ص285.
- ¹⁴ - عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، مرجع سابق، ص177.
- ¹⁵ - سعيد جبار: السيري والتخييل في الرواية المغربية، (2004م)، جذور للنشر، (الرباط)، ط1، ص21.
- ¹⁶ - عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، مرجع سابق، ص173.
- ¹⁷ - محمد عبيد الله: رواية السيرة الغريبة قضايا الشكل والتناس وجدل التاريخي والتخييل، (2020م)، دار كنارا للنشر والتوزيع، (قطر)، ط1، ص50.
- ¹⁸ - علي سعيد: السيرة الذاتية العراقية الحديثة خصائص النوع والبناء السرد، (2017م)، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، (بغداد - العراق)، ط1، ص108.
- ¹⁹ - سعيد جبار: كتابة الأنا بين المرجعي والتخييل من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي، (1443هـ - 2022م)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، (عمان - الأردن)، ط1، ص7.
- ²⁰ - فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، مرجع سابق، ص35.

- ²¹ - أحلام مستغاني: أصبحت أنت، (2023م)، دار نوفل، (لبنان)، ص 23
- ²² - المرجع نفسه، ص 24.
- ²³ - رئيسة موسى كريمة: عالم أحلام مستغاني الروائي، (1436هـ - 2015م)، دار زهران للنشر والتوزيع، (عمان-الأردن)، ط1، ص 46.
- ²⁴ - أحلام مستغاني: أصبحت أنت، مرجع سابق، ص 11.
- ²⁵ - فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، مرجع سابق ص 40.
- ²⁶ - أحلام مستغاني: أصبحت أنت، مرجع سابق، ص 21.
- ²⁷ - فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، مرجع سابق، ص 12.
- ²⁸ - أحلام مستغاني: أصبحت أنت، مرجع سابق، ص 15.
- ²⁹ - جورج ماي: السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 285.
- ³⁰ - هيوغ سلفرمان: نصيات بين الهرمونيوطيقا والتفكيكية، (2002م)، تر: حسن ناظم - علي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء - المغرب)، ط1، ص 253.
- ³¹ - عبد المالك أشهبون: عتبات الكتابة في الرواية العربية، (2009م)، دار الحوار للنشر والتوزيع، (اللاذقية - سوريا)، ط1، ص 47.
- ³² - أحلام مستغاني: أصبحت أنت، مرجع سابق، ص 5.
- ³³ - المرجع نفسه، ص 5.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. أحلام مستغاني: أصبحت أنت، (2023م)، دار نوفل، (لبنان).
2. جورج ماي: السيرة الذاتية، (2017م)، تر: محمد القاضي - عبد الله صولة، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط1.
3. رئيسة موسى كريمة: عالم أحلام مستغاني الروائي، (1436هـ - 2015م)، دار زهران للنشر والتوزيع، (عمان-الأردن)، ط1.
4. سعيد جبّار: السيري والتخيلي في الرواية المغربية، (2004م)، جذور للنشر، (الرباط)، ط1.
5. سعيد جبار: كتابة الأنا بين المرجعي والتخيلي من السيرة الذاتية إلى التخيل الذاتي، (1443 هـ - 2022 م)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، (عمان-الأردن)، ط1.
6. صالح معيض الغامدي: كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، (2013م)، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، ط1.
7. عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، (2011م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت- لبنان)، ط1.
8. عبد المالك أشهبون: عتبات الكتابة في الرواية العربية، (2009م)، دار الحوار للنشر والتوزيع، (اللاذقية- سوريا)، ط1.
9. علي سعيد: السيرة الذاتية العراقية الحديثة خصائص النوع والبناء السردي، (2017م)، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، (بغداد- العراق)، ط1.

10. فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، (2008م)، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، (المغرب).
 11. الكبير الداديسي: مسارات الرواية العربية المعاصرة، (2018م)، مؤسسة الرحاب الحديثة، (بيروت- لبنان)، ط1.
 12. محمد الباردى: عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، (2008)، مركز الرواية العربية، (تونس)، ط1.
 13. محمد براءة: الذات في السرد الروائي دراسات نقدية، (2010م)، دار أزمنة، (عمان)، ط1.
 14. محمد عبيد الله: رواية السيرة الغريبة قضايا الشكل والتناسل وجدل التاريخي والتخيلي، (2020م)، دار كتارا للنشر والتوزيع، (قطر)، ط1.
 15. محمد معتصم: المتخيل المختلف دراسات تأويلية في الرواية العربية المعاصرة، (1435هـ - 2014م)، منشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط1.
 16. محمد معتصم: قراءة الرواية وكتابة الذات، دراسات في تجريب الرواية العربية، (2016م)، دار فضاءات، (عمان- الأردن)، ط1.
 17. هبوج سلفرمان: نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، (2002م)، تر: حسن ناظم - علي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء- المغرب)، ط1.
- المجلات:**
1. عادل الدراغامي زايد: "إشكالية النوع والتجنيس السيرة الذاتية نموذجاً"، 1429هـ - 2008م، مجلة علامات في النقد، المملكة العربية السعودية، مج17، ج 65.